

الخلفية التاريخية لموت المؤلف.

الطبيب بن عون

جامعة سيدي بلعباس

من الثابت أن التاريخ هو الإطار ، الذي ضم جميع الفكر البشري بنشاطاته الدينية والاجتماعية والمادية ، وحفظ هذا كله عن الأجيال السابقة ، فأصبح بمثابة التجربة المدونة أو بمعنى آخر تجارب علمية استخدمت وظهرت نتائجها . إن التاريخ نتاج العقل البشري ودليل وجوده وشعوره ، ومن أعظم ما يدل على عمق الفكر عند الإنسان القديم ، حرصه على البحث الدائم عن الحقيقة الأولى في حياة الإنسان وهي الموت ، ولا شك أن ميلاد أي شيء أسهل في الاستيعاب والافتناع من الموت .

ولقد حاول الإنسان تفسير هذه الحقيقة المؤكدة ، حقيقة الموت منذ بدء الخليقة ، ومع ذلك فقد ظل عاجزا أمام هذه الحقيقة الكبرى . لكن هذا العجز لم يوقف عزمه عن مواصلة البحث في حركة التاريخ وديناميكيته ، ليحصر دور الصدفة في بناء جزء ولو ضئيل من حياة البشرية . يقول مونتيسكيو *Montesquieu* : « ليست المصادفة التي تحكم العالم ، هناك أسباب عامة ، سواء كانت ناتجة عن الطبيعة المادية أو أسباب أخلاقية ، تعمل في جميع الملكيات فتسمو أو تدنو بها ، تساندها أو تؤدي إلى سقوطها . إن الأحداث كلها تخضع لهذه الأسباب »⁽¹⁾ . إن البحث في الأسباب التي تحكم في تكون أي أمة من الأمم ، هي فكرية في الأساس ، أي أن العقل هو الآلية المؤهلة للتنقيب في خبايا فكر أمة ما ، ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة ، ثم اتصاله بسيرة الإنسان في الأرض وجهوده المتصلة ، لرفع شأنه اقتصاديا وعلميا وفكريا ، ومدى ارتباط ماضي الأمة بحاضرها ، ثم بمستقبلها . إن علم التاريخ يبحث منذ الآن في الماضي لتفسير الحاضر ، ولاكتشاف القوانين التي تسمح بالتعرف على المستقبل ، هذا العلم يبدو في الواقع قريبا جدا من بلوغ هدفه ، ألا وهو بناء التاريخ ككل⁽²⁾ . إن مفهوم مصطلح " علم " يعني عقلنة التاريخ ، أي بمعنى أن العقل كما سلف الذكر ، هو الآلية المؤهلة للبحث في ذلك ، ويفسر ذلك أضولفو باسكين *A. Baskiz* بقوله أن " عقلنة أحداث التاريخ موضعها في نظام كرونومنتقي (زمن / منطقي) في ترابط مثلث الاتجاه بحاضرها ، وماضيها ، ومستقبلها⁽³⁾ على اعتبار الربط السببي بالمسببي ، من حيث الحدث وتاريخه وأسباب وقوعه . وعليه يتم رسم الآفاق .

إن ثبات التاريخ في كل الأشياء ، من حيث تأصيلها وتاريخها حتى وإن كان ذا اتجاه خطي من حيث المعنى ، كان سببا في تأريق رولان بارت ، وكان وجود منخلص منه من الضرورة بمكان ، فكانت اللسانيات البنيوية كمخلص من ذلك الأرق ومن تشويش هذا التاريخ على الأدب يقول بارت : « هذه العلاقة - الأشكال المكونة لعمق المحاولات الأدبية والتاريخ - هي بالنسبة لي مهمة ، ولم أبعدها عن المراقبة ، حتى وإن فكرت أن أضعها بين قوسين بواسطة فصل مؤقت ضروري إذا أردنا طرد هذا الأنا المثالي للتاريخ ... حتى ظهور البنيوية »⁽⁴⁾. هذا الأرق والتشويش لم يكن عند بارت فقط ولكن عند كل البنيويين والتفكيكيين أي أصحاب تيار الموت ، ودعاة هدم التاريخ والذات .

إذا كان التاريخ بحث في حقيقة ديناميكية الشيء وتغيراته ، فإن الفكر الخاص بالتأصيل للنظريات هو الذي يتولى ذلك " فالتاريخ لا يستطيع وحده وكفاية من ذاته ، أن يغذي حياة داخلية وثقافية في إنسان ، ولا يستطيع أن يصبح العنصر المدير بالنسبة إليهما ، ولا روحهما ... فهذا الدور لا يقدر على تمثيله غير الفكر المتحكم بالنظريات ، ولنقل دون أن نفتش كثيرا عن معين غير الفلسفة »⁽⁵⁾ بما أن ذاك وهذا نتاج عقل الإنسان ، فهو معرض للتمحيص والحكم عليه ، وكان أن أدرج ضمن الأوهام التي تقنع الإنسان بأسطورة الخليفة مركز الكون . يقول نيتشه : « ماذا يمكن أن تكون عقيدتنا الوحيدة ؟ أن لا يهب أحد للإنسان مزاياه لا الإله ، لا المجتمع ، لا آباؤه ، ولا أسلافه ، ولا هو نفسه ... لا أحد يتحمل مسؤولية وجوده ... »⁽⁶⁾ . يجمع نيتشه كل المرجعيات المكونة لبناء الإنسان على هذه الأرض ، بما فيها هو نفسه (الإنسان) ليعلن عبثية الوجود فلا حكم لأي منها على الإنسان ، كما لا فضل لأي منها ، وكل ما ندعيه هو من ابتكار العقل الذي أرادت الفلسفة أن تجعل منه بديلا عن المطلق / الأصل .

لكن في حقيقة الأمر البحث عن الأصل ، هو بحث عن اقتناع تبثه ثقة المقنع بالفكرة التي اعتمدها العقل في تفسير الظواهر ومحاولة إعطائها معنى جديد دون أي سبب باعتبار الغاية وهم سعى إلى تأصيلها ذلك المقنع يقول ج . دلوز : « إننا نرى أنه يجب أن يكون فن التفسير فن اختراق الأفتنة أيضا ، واكتشاف من يتقنع ولماذا ، ولأي غاية تجري المحافظة على قناع عبر إعادة صياغته »⁽⁷⁾ وهذا تأكيد على ما زعمه نيتشه في تصوير حقيقة المفاهيم والأحداث ، فهي كلها وهمية ووجودها أقره تأويل مؤول لا يعرف لأي غاية " ليس هناك حادث في ذاته ، فكل ما يحصل ويتم ، ليس إلا مجموعة من الظواهر التي انتقاها واختارها كائن مؤول »⁽⁸⁾ . لقد عجز الفكر عن رسم خطاطة ، للتأويل انطلاقا من وقائع متغيرة ، فتأويل الظاهرة أو الحدث يخضع للشروط النفسية والفكرية للمؤول في إطار الآني *L'actuel* وعليه تبدو الظاهرة بمفهومها الآني ، كبداية لتاريخها دون تطور إلى أن يمسه تأويل آخر ويخضعها لشروط مغايرة وهكذا " ... البداية ، *Commencement* من هنا ينتمي إليها التاريخ ومع ذلك تتجاوز ... العمل يقول هذه الكلمة ، وما تدعي إعطاءه للتاريخ هو الأولية *Enitiative* ، إمكانية لنقطة الانطلاق لكنه هو نفسه لا يبدأ ، إنه دائما باطن كل بداية إنه دائما منتهي قبلا⁽⁹⁾ لكل عمل أو ظاهرة بداية يسكنها التاريخ ،

تحيا على سيره الخطي والمتقطع أمام التغيرات التي ترسم الزمن المعيش في ثلاثيته (ماضي حاضر مستقبل) ، والتي يسعى الإنسان إلى تخطيط مسار حياته المثالية " فالتاريخ يضع طموحنا العقلي والثقافي ليس خارج عنا ، ولكن ننتمي إليه بواسطة تاريخانية *Historicisme* حتى حياتنا⁽¹⁰⁾ . إن انتماءنا إلى التاريخ بواسطة التاريخانية " التي في معناها الضيق ... الرؤية التي تعتبر أن التغير الاجتماعي أو التطور التاريخي ، يخضع لقوانين التعاقب غير المشروطة ، التي تعطي التاريخ وجهة أو اتجاهها ...⁽¹¹⁾ والتي تصور تطور الإنسان من حيث فكر ، هو ثقافته مسبقا بشعوره ، يضع التاريخ داخل دائرة اللاعلمية ، بحيث يصعب دراسته في إطار التعاقب ، ومن ثم كان الجدل قائما حول كيفية دراسته دراسة علمية .

فكانت البنيوية والظاهرانية قد سعتا سعيا حثيثا في وضع التاريخ ضمن اهتمامهما ، ولكن كانت النتيجة الإلغاء لأن الذي يكتبه إنسان بالنسبة للبنيوية ، وهذا الإنسان ثم إلغاؤه لعدم أهليته ومسؤوليته . أما بالنسبة للظاهرانية فالتاريخ مقصي عندها كون دراسة أي ظاهرة تكون مفصلة عن كل الأحكام السابقة بما فيها التاريخ كمرجع .

إن ما يبعد التاريخ عن صفة العلم من وجهة نظر العلماء ، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية ، كونه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضع له العلم ، من المعانية والملاحظة والفحص والتجربة ، ولا يمكن استخلاص قوانين علمية ثابتة " في نهاية قرن من الجهود ، يجب أن نلاحظ أنه لم يكن في الإمكان إنجاح المساعي في جعل التاريخ علما موضوعيا مغايرا لما عرف عنه ، إذ لا يوجد علم تاريخ ، ولكن سلسلة وجهات نظر مختلفة الأهداف يستحيل انعكاسها على الماضي⁽¹²⁾ . لا يمكن اعتبار التاريخ علما ، كون الأحداث التاريخية لا تخضع للملاحظة والتجربة كما أن كل حادثة تاريخية وإن كانت مرتبطة بما قبلها ومتصلة بما يليها ، إلا أنها تعتبر قائمة بذاتها لا يمكن أن تتكرر . ومن ثم كان خارج اهتمام البنيوية لأنه ثمة تعارض بين البنى *Structures* والتاريخ ، يتجلى في التناقض بين التزامن والتعاقب الذي سلم به دوسويسر ولذلك " فالتحليل البنيوي يكشف عن موضوع عقلي ، عقلانيته مستقلة عن وعي الإنسان وإرادته ، مثلما أن اللغة علة إنسانية لها عللها التي لا يعرفها الإنسان⁽¹³⁾ .

تنتج الاستقلالية عن الوعي من خلال البحث في كيفية تكون الموضوع ، وليس من أين صدر ، فالسؤال كيف ، هو محاولة لتحويل البحث في حقيقة الموضوع كونه يتركب من قواعد / أسس تخضع للمحايدة وبالتالي تفقد الأصلية . فالمحايدة تقتضي الأنية . والموضوع يوضع بين قوسين ، أي فصله عن كل ما سبقه وما يمكن أن يليه إنه التزامن " فالتزامن هو المعاصرة ذاتها ، وخضوع الماهية في الوقت ذاته مع تعييناتها حيث يمكن قراءة الحاضر كبنية داخل اقتطاع ماهوي⁽¹⁴⁾ . إن الموضوع المفصول المقتطع عن ماهيته من أجل الدراسة ، قد يقتطع مرة ثانية وثالثة على

فترات زمنية متباعدة ، وبالتالي يبقى داخل الحركة التاريخية وقد حاول رولان بارت في حديث أدلى به لمجلة فرنسية تأكيد ذلك مستشهدا بنظرية التناس " إذا كان الأدب هو تناسية ، هو حوار كتابات فإنه سيوجد في اللغة الأدبية كل الحركة التاريخية لكنها الحركة التاريخية ، التي الزمن فيها يظل زمن الأدب نفسه " ⁽¹⁵⁾ هذه الحركة التاريخية التي يعتقد أضولفو باسكيز أن تمثل في حد ذاتها نسقا نسبي الثبوت وعليه يتساءل إن كان بإمكان " التزامن أن يكون تاريخيا أيضا من حيث إن كل بنية هي بدورها نتاج ونتيجة " ⁽¹⁶⁾ نفس الأطروحة كانت عند الظاهراتية التي أقصت التاريخ كون معناها لا يوضع نفسه في زمن تاريخي معين ، لأن الأنية هي ضبط وصف ظاهرة ما " فعندما تحاول الظاهراتية أن تقدم وصفا للتاريخ فلا بد من أن تضع في اعتبارها أنها هي نفسها متموقعة في التاريخ وعندها كيف يفسر علم التاريخ نفسه باعتباره هو نفسه يحدث في التاريخ ... " ⁽¹⁷⁾ إن قراءة التاريخ تبدأ من زمن القارئ لاستخلاص معنى من محايثته ، من حيث جعل الأصول للتاريخ مجردة من سلبية التداول وتقاليد الشرح ، باعتبار كثافة المعاني والتأويلات لقصدية الشعور ، لكن لانهاية التاريخ ولا قصديته ونتائجه التي لا تكون دائما حسب تطلعات الأفراد ، تجعل للصدفة مجال واسع تساعد على اتساع الهوة بين علميته من حيث استخلاص قوانين علمية ومن حيث انفتاحه على المصادفة وحرية إرادة الشخصية الإنسانية " ... التاريخ ليس علما كون الأحداث التاريخية لا تخضع للملاحظة والتجربة ... هذا إلى جانب أن الدراسة التاريخية لا توصل إلى تعميمات أو قوانين علمية ، بالإضافة إلى أنه لا يمكن التنبؤ بمسار التاريخ في المستقبل " ⁽¹⁸⁾ . إذا كانت الظاهراتية في انفتاح مجالها القسدي والشعوري تتعارض مع الشعور السبقي والبديهة العقلية التي تعتمدهما النفسانية *psychologisme* ، والتاريخانية *historicisme* ، فهي بطبيعة الحال ستتناقض مع التاريخ في مجاله المؤسس على إعادة البناء والتخمين حيث يؤسس العقل المعرفة على مصدر غريب عن الشعور الأنبي .

كان تعالي بعض الآراء إلى عقلنة التاريخ ، أحد العوامل لتثبيت نزعة إنسانية جديدة لما شهدته الأمم من نزعات عرقية ودينية ، خاصة مع عصر النهضة أين سعت بعض الحركات إلى المصادرة على الامتياز العرقي ، فكان من إحدى مهام الفكر عبر التاريخ التعديل من طبائع الإنسان الغريزية ، والتلطيف من شدة النوازع العدوانية ، وتم اعتماد العقل كميزان تقويم ، وأزيج المقدس الذي وجد تعارض شديد مع هذا العقل ، الذي تميز به الإنسان ، وصار هو كل شيء ، هو الأصل وهو المحور ، فانصرف توجه العناية إلى دراسة العلوم المتصلة بالإنسان .

1. R.Barthes : entretien Grain de la voix skira Genève 1981 -, p5
2. جوزيف موريس : قيمة التاريخ ، تر/ نسيم نصر ، منشورات عويدات باريس ص118.
3. فريدريك نيتشه : أقول الأصنام ، تر/ حسان بورقيبة ، محمد الناجي ، إفريقيا الشرق المغرب 1998 ص55.
4. ج.دلوز : نيتشه والفلسفة ، تر/ أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - 2001 ص10.
5. عبد السلام بن عبد العالي ، أسس الفكر الفلسفي المعاصر ، مجاوزة الميتافيزيقيا ، دار توبقال للنشر ، المغرب - ط1 - 1991م ص31.
6. M.Blanchot : l'espace littéraire , Edition Gallimard p304 .
7. فريدريك نيتشه : أقول الأصنام ، تر/ حسان بورقيبة ، محمد الناجي ، إفريقيا الشرق المغرب ط1 1996 ص55
8. جوزيف موريس : قيمة التاريخ ، تر/ نسيم نصر ، ص76.
9. أضولفو باسكين ، البنيوية والتاريخ ، - تر/ مصطفى المنساوي - دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1981م. ص19.
10. عبد السلام بن عبد العالي : الميتافيزيقيا العلم والأيدولوجيا ، دار الطليعة للطباعة والنشر ط2 - 1993م. ص118
11. عبد المالك مرتاض : في نظرية النقد ، دار هومه ، الجزائر ، ص214.
12. عبد السلام المسدي ، قضية البنيوية دراسة ومناهج ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، ص144 .
13. ج. هيو سلقرمان : نصيات ، تر/ حسن ناظم وعلي حاكم صالح ، المركز الثقافي العربي ، ص315.
14. رأفت غنيمي الشيخ : فلسفة التاريخ ، دار الثقافة والنشر للتوزيع ، القاهرة ، ص13 .
15. محمود يعقوبي : معجم الفلسفة ، مكتبة الشركة الجزائرية ، ص17 .
16. Madeline Grawitiz : lexique des sciences social , 7^{ème} édition , 2000,
17. محمود يعقوبي : معجم الفلسفة ، مكتبة الشركة الجزائرية ، ص17 .
18. Madeline Grawitiz : lexique des sciences social , 7^{ème} édition , 2000, p211.